الفصل الثاني

قيمة الوجوه البلاغية في جمال التعبير اللغوي

ندرس في هذا الفصل المقوّمات البلاغية في تكوين الأسلوب الأدبي الرفيع ، ودور هذه الوجوه في توجيه النقد الأدبي في مراحله المختلفة ، محاولين بذلك دفع الهجوم الظالم على البلاغة العربية ومحاولة التهوين من شأنها في مجال النماذج الأدبية ونقدها ، عارضين كل ذلك في إيجاز واف .

ويجب أن نُفرّق ـ من الآن ـ بين مسألتين هامتين :

الأولى : البلاغة كفن من فنون الجَمال التعبيري .

والثانية : البلاغة كعلم له قواعد وأصول .

والبلاغة كفن سابقة في الوجود على البلاغة كعلم ، لأن البلاغة كعلم لم تُستنبط إلا في مرحلة متأخرة عن وجود موضوعها ومجالها الذي برزت فيه ، شأنها في ذلك شأن جميع العلوم اللغوية ، فعلم النحو وعلم الصرف وعلم العروض إنما وُجِدَت نتيجة للبحث والدراسة في النصوص النثرية والشّعرية ... والعربي إنما كان يتكلم على هدى من علمي النحو والصرف دون وقوفه على تلك الاصطلاحات التي جَدّت في عصور الدراسة والتدوين ، والشاعر العربي كان ينطلق في شِعره دون أن يدري على أى بحر من بحور الخليل أنشأ قصيدته ، ودون أن يعلَم ما شاع في شِعره من علل أو زحاف ، وكذلك كان البليغ منهم يجري في تعبيره مع سجيته ، ويصوِّر معانيه كما يحسها خياله مشبهًا ومكنيًا ومستعيرًا ، ومقدِّمًا ومؤخرًا ، ومؤكدًا أو تاركًا للتوكيد ... إلى آخر هذه الاعتبارات دون أن يلحظ ما توَّصل إليه السكاكي أخيرا من تأصيل وتقعيد لعلم البلاغة : معانيها وبيانها ومحسناتها في المعنى أو اللفظ .

هذه حقيقة لا يمكن أن تُنكر .

- العصر الجاهلي :

وقد نشأت البلاغة كعلم نتيجة للملاحظات التي برزت أمام النُقَّاد في التراث العربي الأصيل ، بدأت هذه الملاحظات من العصر الجاهلي ، ذلك لأن الرواية العربية تنقل لنا من تلك الملاحظات ضوءاً ينبئ عن إحساس العرب بمواطن الجودة والرداءة في الأساليب الأدبية .

تذكر الرواية العربية أن طُرفة بن العبد ـ الشاعر الجاهلي ـ عاب قول الملتمس ـ أو المسيب بن علس ، على خلاف في هذه الرواية ـ لأنه قال :

وقَـد أتناسَـى الهـمَّ عنـد احتِضـارِهِ بِنـاجٍ عليـه الصَّـيْعَرِيَّةُ مُكْـدِمُ

تقول الرواية : إن طُرفة حين سمع هـذا البيـت ـ وكـان طفـلاً ـ قـال كلمتـه المشـهورة : استنوق الجمـل ، إشـارة إلى خطـأ في الاسـتعمال اللغـوي لكلمـة «الصيعرية» لأن الشاعر استعملها صفة للجمل ، وهي لا تكون إلا صفة للناقة في العُرف اللغوي ، ومن هذه الجهة كان نقده [1].

ويبدو أن طُرفة كان متعجلاً في نقده ؛ لأن للشاعر مندوحة تصحح له هذا الاستعمال إذ تنص المعاجم اللغوية على أن اختصاص الناقة بهذا الوصف إنما هو في لغة اليمن دون لغة الحجاز[2] .

والمتتبع للملاحظات التي كان يدركها النقاد الجاهليون يمكن أن يخضعها لثلاثة مظاهر ..

أولها : خروج المشاعر عن الواقع أو مراعاة عنصر الصدق في الحديث . وتطبيقًا لهذا المبدأ عابوا قول المهلهل بن ربيعة :

فَلَـوْلا الـرِّيحُ أسْـمَعَ مَـنْ بحُجـزٍ صَـلِيلُ البِـيضِ تُقْـرَعُ بالـذُكُورِ

---

(١) معالم النقد الأدبي بتصرف : دكتور عبد الرحمن عثمان ص ٦٥ .

(٢) لسان العرب لابن منظور (جـ ٤) مادة «صعر» .

لاشتماله على مبالغة مستكرهة ، لأن بين « حجر » وهو قصبة اليمامة وبين مكان الموقعة مسيرة عشرة أيام ، ولهذا عدُّوا قوله هذا « أكذب بيت قالته العرب »[1] .

ذلك لأن العربي لا يميل إلى المبالغة والتهويل في تصوير عواطفه ، وإنما يسير مع الواقع المحسوس ، أو يقاربه .

ولهذا ـ أيضًا ـ لم يعيبوا قول أوس بن حجر يصف السحاب :

دَانٍ مُسِفٌّ فُوَيْقَ الأرض هَيْدَبُهُ يكادُ يَلْمسُهُ مَنْ قام بالرَّاحِ

لأنه لم يُغرب في تصويره لدنو السحاب من الأرض ، فذلك منظر مألوف في صحراء العرب ، والنفس العربية مولعة به دائمًا لأن فيه أسباب الحياة، والشاعر حتى مع هذا الإلف ، وحب النفس للسحاب ، احترس من الغلو في المبالغة فأتى بكلمة « يكاد » ليكون معناه مقبولاً .

ثانيها : الربط القوي بين الألفاظ وما تدل عليه ، وعليه عابوا قول الملتمس السابق لأنه خالف العُرف اللغوي فاستعمل اللفظ في غير موضعه .. وإن التمسنا وجهًا لصحته كما سبق .

ثالثها : النظر في اللفظ من حيث دلالته على معناه الجمالي ، ولذلك عاب النابغة الذبياني قول حسَّان بن ثابت :

لنا الجَفَنات الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى وأسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَما

وَلَدْنا بَنِي العَنْقَاءِ وابْنَي مُحَرِّقٍ فأكْرِمْ بِنَا خالاً ، وأكْرِمْ بنا ابْنَمَا

قال النابغة لحسَّان : « إنك لشاعر لولا أنك قلَّلتَ جفانك ، وفخرتَ بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، وقلتَ :« يلمعن في الضحى » ولو قلت : « يبرقن في الدُجَى » لكان أبلغ في المديح ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقًا ، وقلت : « يقطرن من نجدة دمًا »... ولو قلتَ : « يجرين » لكان أكثر لانصباب الدم [2].

---

(١) معالم النقد الأدبي ـ دكتور عبد الرحمن عثمان ص ١٠٥ .

(٢) الأغاني للأصفهاني ـ دار الكتب : ٣٤٩/٥ .

هذه الملاحظات تدل ـ وإن تطرق إليها الشك أحيانًا ـ على إدراك العربي لصقل الشعر ووقوفه على مواطن الجودة والجمال فيه ، وقد نقلت هذه الرواية أن زهيرًا كان يقلب النظر في شِعره ينقحه ويهذبه حولاً كاملاً حتى سميت قصائده بـ «الحوليات» وكان زهير هذا رائد مدرسة أدبية لها أتباعها والمعجبون بها .. مثل ابنه كعب ، والحطيئة وهدبة بن الحشرم العذري ، وعنه أخذها جميل بن معمر ، وعن جميل تلقاها كثير عزة[1].

وللعرب في الجاهلية أسواقهم المعروفة (عكاظ ـ وذو المجاز ـ وذو المجنة) التي كان الشعراء يعرضون فيها نتاجهم الأدبي ليقول النقاد فيه رأيهم .. فهي أشبه ما تكون بالمهرجانات الأدبية التي تُقام كل عام مرة في العصر الحديث ، بَيْدَ أن النقد عندهم كان يعتمد على اللمحة الخاطفة والبساطة والإيجاز ، ومرجعه في الغالب إلى الذوق وإلى معايير غير الذوق كالجوانب الثلاثة التي عرضنا أمثلة لها آنفًا .

- العصر الإسلامي :

وفي العصر الإسلامي جدَّت ظاهرتان كان لهما أعظم الأثر في توجيه الأدب وتهذيب الأساليب وتربية الذوق ، وهما : القرآن الكريم ، والآثار النبوية الشريفة ، فقد جاء القرآن حافلاً بصور البيان ، وضروب البديع ، وجدة المعنى . وقوة الأسلوب وجزالته ووضوح المعنى وطرافته .

وهذا أمر لا يحتاج إلى دليل ، فالقرآن ـ نفسه ـ شاهد صدق ، وآياته تفيض بالبيان الرفيع في كل حين بإذن ربها ، فقد بهر العرب وتحدَّاهم فحاولوا ، وحاولوا فعجزوا واعترفوا بأنه ليس من عمل بَشر .

فقد سمع الوليد بن المغيرة ـ أحد خصوم الرسول الألداء ـ الرسول ﷺ يقرأ صدر سورة «فصلت» فأعجب بها أيما إعجاب ، ثم قال : «والله لقد سمعتُ

---

(١) من كتاب «البلاغة تطور وتاريخ» : دكتور شوقي ضيف ص ١٢ .

من محمد كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإنَّ له لحلاوة ، وإنَّ عليه لطلاوة ، وإنَّ أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق» .

وكان من أبرز الملاحظات التي أثارها القرآن تشبيهه طلع «شجرة الزقوم» برءوس الشياطين ، وهي ليست معروفة عندهم ، وكانت هذه الملاحظة سببًا في وضع أبي عبيدة كتابه «مجاز القرآن» .

وأسهمت أحاديث الرسول عليه السلام في تطور الملاحظات البلاغية لأنه ـ عليه السلام ـ كان بليغًا فصيحًا ـ هو كما يقول الجاحظ : «لم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشَّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته» .

وكانت خطب الصحابة ، مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، والأمثال والحكم المأثورة عنهم وعن غيرهم نماذج رائعة للأسلوب البليغ فحفظها الناس وروتها الأجيال .

- العصر الأموي :

وجاء العصر الأموي وهو عصر كان طابعه العام الفتن السياسية التي مزقت أوصال الأمة وفرَّقتها شيعًا وأحزابًا .. شيعة وزبيريين ، وأمويين وخوارج ، وأعادت العصبية العربية إلى الوجود مرة أخرى ، وكانت ملاحظات هذا العصر ترجع إلى الذوق العربي والاحتكام إلى اللغة كالنحو والصرف واستقرت الاتجاهات النقدية في هذه الفترة في نواح ثلاث :

الأولى : نقد الذوَّاقين من الأدباء والخلفاء والرواة .

والثانية : الموازنة الدقيقة بين نصين اتحدا في الموضوع أو بين شاعرين يجمعهما مذهب شِعري واحد .

والثالثة : النقد العلمي المحتكم فيه إلى اللغة والنحو ، ونذكر لكل مثالاً فيما يأتي :

فمن نقد الذوّاقين قال أبو النجم يصف فرسًا :

* يَسْبحُ أُخراهُ وَيطْفُو أوّلُه *

فنقده الأصمعي بقوله : إذا كان ـ الفرس ـ كذلك فحمار الكساح أسرع منه، لأن اضطراب مؤخره قبيح ، وإنما الوجه ما قال أعرابي في وصف فرس أبي الأعور السلمي :

مرَّ كَلَمْعِ البَرْقِ شامَ نَاظِرُهْ يَسْبَحُ أَولاَهُ وَيَطْفُو آخِرُهْ

فَمَا يَمَسُّ الأرضَ مِنْهُ حَافِرُهْ[1]

وقد طابق الأصمعي ـ هنا ـ بين المضمون والشكل ـ أو بين المعنى والصورة ـ فوجد اضطرابًا في المعنى نجم عن تعبير الشاعر عنه بقوله : « يسبح أخراه » .

فنقده نقدًا جمع فيه بين ذوق اهتدى بالفكر إلى فساد ما ذهب إليه الشاعر[2].

ومن نقد الموازنات أنشد بشار بن برد قول كثير عزة :

إلا إنَّمَا لَيْلَى عصًى خَيْزَرَانَةٍ إذَا غَمزُوهَا بِالأكُفِّ تَلِينُ

فقال : لله أبو صخر ، جعلها خيزرانة ، فوالله لو جعلها عصا زبد لهجنها ، ألا قال كما قلت :

إذَا قَامَتْ لحاجتِهَا تثنَّتْ كَأنَّ عِظَامَهَا مِنْ خَيْزَرَانِ

أقول : وقد فات بشارًا في نقده للبيت المذكور ملحظ آخر .. هو أن كثيرًا جعل « ليلى » في قوله هذا مشاعًا بين الغامزين .. وكان الأحرى أن يثبت لها الصون والعفاف ..

---

(١) العقد الفريد : لابن عبد ربه : ١٧/٤ ـ ط . مصطفى محمد .

(٢) معالم النقد الأدبي دكتور عبد الرحمن عثمان ص ٧٤ .

ومن النقد العلمي المحتكم إلى اللغة قول الحضرمي ينقد الفرزدق في قوله :

وغَضُّ زَمانٍ يا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ مِنَ النَّاسِ إلاَّ مُسْحِتًا أو مُجلَّفُ

فقد نقده أبو عبد الله الحضرمي النحوي بأنه عطف المرفوع : «مجلف» على المنصوب : «مسحتًا»[1] . والاحتكام في هذا النقد راجع إلى النحو .

وقال الفرزدق أيضًا :

وإذَا الرِّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُم خُضُعَ الرِّقَابِ نَواكِسَ الأبصارِ

فنقده أبو العباس محمد بن يزيد النحوي بأنه جمع «ناكس» على «نواكس» وفواعل خاص بالمؤنث .. ولم يجمع المذكر على فواعل إلا في موضعين «فوارس» و«هوالك» والمحتكَم إليه في هذا النقد هو الصرف .

«والحق أن الملاحظات البيانية كثرت في هذا العصر ، وهي كثرة عملت فيها بواعث كثيرة ، فقد تمصَّر العرب واستقروا في الأمصار وازدهرت حياتهم العقلية وأخوا يتجادلون في جميع شئونهم السياسية والعقدية .. ونما العقل العربي نموًّا واسعًا ، فكان طبعيًّا أن ينمو النظر في بلاغة الكلام ، وأن تكثر الملاحظات المتصلة بحسن البيان لا في مجال الخطابة والخطباء فقط ، بل في مجال الشِّعر والشعراء»[2].

ومع هذا الاتساع في إدراك الملاحظات البلاغية ، فقد ظلت ـ كما هو الحال في العصرين : الجاهلي والإسلامي ـ متصلة بالنقد في أدق معانية .

- العصر العباسي :

وفي العصر العباسي تجددت الحياة في كل جانب من جوانبها ، وازدهرت الثقافة والفكر ازدهارًا عكس آثاره على كل لون من ألوان الحضارة الإسلامية ، والباحث يرى خصائص العصر العباسي لم تتوافر لسواه ، وهي تتمثل في ثلاث نواح :

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، للقاضي الجرجاني ص ٩٢٨ .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ : دكتور شوقي ضيف ص ١٥ ـ ط . دار المعارف .

الأولى : امتداد زماني من سنة (١٣٢ إلى سنة ٦٥٦هـ) حين سقطت بغداد في يد المغول بزعامة قائدهم هولاكو .

الثانية : امتداد مساحي اتسعت رُقعة الدولة فيه وانتظمت تحت لوائها كثير من الأقطار والشعوب الأجنبية .

الثالثة : امتداد ثقافي في جميع الفنون والعلوم ونشطت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وامتزجت الثقافة العربية بغيرها من لغات الأمم التي شملها الفتح الإسلامي .

جاء في كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية»[1] لجرجي زيدان تلخيص للكتب التي نقلت إلى اللغة العربية في العصر العباسي الأول (١٣٢ ـ ٣٣٢هـ) نوجزه فيما يأتي :

بلغت الكتب التي نُقِلت إلى اللغة العربية من اللغات الأخرى بضع مئات ، منها ثمانية في الفلسفة والأدب لأفلاطون ، وتسعة عشر في الفلسفة والمنطق والأدب لأرسطو ، وعشرة في الطب لأبقراط ، وثمانية وأربعون في الطب لجالينوس ، وبضعة وعشرون كتابًا في الرياضيات والنجوم لأقليدس وآخرين ، ونحو عشرين كتابًا عن الفارسية في التاريخ والأدب ، ونحو ثلاثين كتابًا من السنكسريتية وأكثرها في الرياضيات والطب والنجوم والأدب ، ونحو عشرين كتابًا من اللغة السريانية أو القبطية ، وهناك بضعة كتب نقلت من اللاتينية والعبرانية» .

لهذه العوامل الثلاثة كان العصر العباسي هو العصر الذهبي بحق في مجال العلوم والفنون ، وقد حفل شأن هذا العصر بفحول العلماء والأدباء والنُقَّاد والقُرَّاء والخطباء ، ونبغ فيه أعلام الفكر العربي الإسلامي نبوغًا منقطع النظير ، ووُضِعت فيه كثير من الكتب .

---

(١) الجزء الثالث ص ٣٥ .

فقد وضع كتاب «مجاز القرآن» لأبي عبيدة معمر بن المثنى (١٨٨هـ) الذي ألفه للفضل بن الربيع ، وبعده كان كتاب «معاني القرآن» لأبي زكريا الفرَّاء (٢٠٧هـ) وقد تحدّث في كتابه هذا عن بعض الوجوه البلاغية مثل الكناية والتشبيه والتمثيل والاستعارة ، ولكنه لم يُصرِّح بذكر اسمها .

ووضع فيه الجاحظ (المتوفى ٢٥٥هـ) كتابيه «البيان والتبيين» ، و«الحيوان» وفيهما ـ وخاصة الأول ـ كثير من التوجيهات البلاغية وهو أول مَنْ يُصرِّح باسم الاستعارة إذ يقول في قول الشاعر :

وَطَفِقَتْ سَحَابَةٌ تَغْشَاها تَبْكِي عَلَى إعَراصِها عَيْنَاهَا

«جعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة ، وهي تسمية الشيء باسم غيره إذ قام مقامه»[1] .

وللجاحظ كتاب آخر غير المذكورين سماه «نظم القرآن» تحدث فيه عن كثير من الفنون البلاغية ولهذا يعده بعض المحدّثين بأنه واضع علم البلاغة[2].

وجاء بعد الجاحظ تلميذه ابن قتيبة (المتوفى ٢٧٦هـ) ووضع كتابه «تأويل مشكل القرآن الكريم»، ولعله انتفع ببحوث أستاذه الجاحظ في هذا المجال وتكاد تتفق تحليلاته البلاغية للنصوص مع ما انتهى إليه الرأي عند المتأخرين من علماء البلاغة .

انظر إليه يقول : «العرب تستعير الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى ، أو مجاوراً له ، أو مشاكلاً : فيقال للنبات : «نوء» ، لأنه يكون من النوء عندهم .. ويقولون للمطر :«سماء» لأنه من السماء ينزل ، فيقال : ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم .. قال الشاعر :

إذَا نَزَلَ السَّماءُ بِأرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وإنْ كانوا غِضابا

---

(١) مقدمة كتاب «تلخيص للبيان في مجازات القرآن» ـ للشريف الرضي .

(٢) هو الدكتور شوقي ضيف : «البلاغة تطور وتاريخ» .

ويقولون : ضحكت الأرض ـ إذا أنبتت ـ لأنها تبدي من حسن النبات وتتفتق عن الزهر كما يفتر الضاحك عن الثغر .. ولذلك قيل لطلع النخل إذا انفتق عنه كافوره : الضحك ؛ لأنه يبدو منه للناظر كبياض الثغر »[1] .

وظاهر مما ذكره أنه لا يُفرِّق بين الاستعارة ـ التي يتحدث عنها ـ وبين المجاز المرسل ، لأن ما ذكره في المثال الأول مجاز مرسل ، وكذلك الثاني ، أما المثالان الأخيران فإن أولهما يمكن حمله على الاستعارة التمثيلية أو المكنية ، والثاني استعارة أصلية تصريحية .

وقد استغرق باب الاستعارة أكثر من أربعين صفحة من كتابه المذكور ، وهو كغيره من السابقين لا يذكر قرينة المجاز .

هذه المحاولات ـ التي بدأت بوضع أبي عبيدة كتابه « مجاز القرآن » وانتهت بابن قتيبة حيث وضع كتابه « مشكل القرآن » ـ مهدت لظهور مرحلة جديدة أخذ العلماء فيها يسجلون من ملاحظاتهم الاصطلاحات الفنية للبلاغة ، بدأت هذه المرحلة بابن المعتز ، وانتهت بالسكاكي .

- كتاب البديع وسبب تأليفه :

ألَّف ابن المعتز ـ أبو العباس عبد الله بن المعتز (المتوفى ٢٩٦هـ) كتابه « البديع » سنة ٢٧٤ هـ ، وكان الباعث له على تأليفه ما يوضحه هو نفسه : « قد قدَّمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة ، وأحاديث رسول الله ﷺ وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم .. وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون بديعًا ليعلم أن بشارًا ومسلمًا وأبا نواس ومَن تقيَّلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر في زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه ، ثم إنَّ حبيب بن أوس الطائي ـ من بعدهم ـ شغف به حتى غلب عليه ... وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض ... وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف »[2] .

---

(١) مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١١٢ .

(٢) ابن المعتز : دكتور عبد المنعم خفاجي . ومعه كتاب البديع ص ٦١٢ .

- البديع .. خمسة :

وقد بحث ابن المعتز في كتابه خمسة فنون تحت اسم «البديع» هي : الاستعارة والتجنيس ، والمطابقة ، ورد الأعجاز على الصدور ، والمذهب الكلامي .. وحين ينتهي من الحديث عنها يردف عليها فنونًا أخرى بلغ بها ثلاثة عشر فنًّا سماها «محاسن الكلام». ويوضح أن هدفه من ذكر هذه الأنواع كلها لم يكن الحصر الشامل لجميع أنواع البديع ولا لجميع أنواع المحاسن ، وليس لأحد أن يدَّعي ذلك .

ويبدأ بالاستعارة فيُعرِّفها بأنها : «استعارة الكلمة لشيء لم يُعرف بها من شيء قد عُرف بها» ، وساق لها شواهد كثيرة من القرآن منها : ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ (الإسراء:٢٤)، ومن الحديث النبوي : «... كلما سمع هيعة طار إليها» ، ومن كلام الصحابة قول عليّ كرم الله وجهه : «... واحلل عُقَد الخوف عنهم» ، ومن كلام غيرهم قال : قال بعض الصالحين في ذم الدنيا : دار غرست بها الأحزان ...» . وتكاد تكون الأمثلة التي ذكرها من قبيل الاستعارة المكنية ، كما تحدث عن الاستعارات الرديئة وذكر طائفة منها مثل :

فَضَرَبْتُ الشتا في أَخْدَعَيْهِ ضَرْبَةً غَادَرَتْهُ عَوْدًا رَكُوبا[1]

وينتقل إلى الحديث عن التجنيس ، ويُعرِّفه بقوله : أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في شِعر أو كلام ، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل الذي ألف الأصمعي كتاب «الأجناس» عليها[2] .. ويقسمه إلى نوعين : ما تجانس فيه الكلمتان في الحروف والمعنى ، ومثَّل له بقول الشاعر :

يَوْمَ خَلَجْتَ على الخليج نُفوسَهُمْ غَضَبًا ، وأنْتَ بِمِثْلِهَا مُسْتَامُ

---

(١) هو لأبي تمام .

(٢) ابن المعتز : دكتور عبد المنعم خفاجي ص ٦٤٤ .

أو يكون تجانسهما في الحروف دون المعنى ، ومثّل له بقول الشاعر :

يـا صـاحِ إنَّ أخَـاكَ الصَّـبَ مَهْمُـومُ فَـارْفِقْ بِـهِ إنَّ لـوم العَاشِـقُ اللَّـومُ ...

أي اللؤم .

وبقوله تعالى : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (النمل:٤٤) ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ (الروم:٤٣) ... وبقوله عليه الصلاة والسلام : « عصيَّة عصت الله ، وغفار غفر الله لها » .

ومن الشعر بقول أبي تمام :

جَـلا ظُلَمَـاتِ الظُّلْـمِ عَـنْ وَجْـهِ أُمَّـةٍ أضَـاءَ لَهَـا مِـنْ كَوْكَـبِ الحـقِّ آفِلُـهْ

وقد ساق كثيراً غير الذي ذكرناه ، وهو وإن لم يقسم الجناس إلى أنواعه المعروفة ، فإن كثرة الأمثلة التي ساقها كانت دليلاً للمتأخرين الذين نظروا فيها وتوصلوا إلى وضع أقسام الجناس المختلفة وضبطها .

وطفق يتحدث عن الطِّباق ـ أو المطابقة ـ ويذكر تعريف الخليل له : « يقال طابقتُ بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد »[1] .

ويمثل له من القرآن بقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة:١٧٩) ، ويقول الرسول عليه السلام : « إنكم لتكثرون عند الفزع ، ولتقلون عند الطمع » . ومن الشعر بقول عبد الله بن الزبير الأسدي :

فَـرَدَّ شُـعُورَهُنَّ السُّـودَ بِيضًـا وَرَدَّ وُجُـوهَهُنَّ البِـيضَ سُـودَا

وبعد أن أفاض في ذكر أمثلة الطباق الجيد ذكر ما ردئ منه ممثلاً له بقول الأخطل :

قُلْـتُ المُقَـامُ ، ونَاعِـبٌ قَـالَ النَّـوَى فعَصَـيْتُ أمْـرِي وَالمُطَـاعُ غُـرَابُ

ويُعلِّق عليه بقوله : وهذا من غث الكلام وبارده[2] .

---

(١) ابن المعتز : دكتور عبد المنعم خفاجي ص ٦٦١ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٧٥ .

ثم تحدَّث عن رد الأعجاز على الصدور، وقسَّمه ثلاثة أقسام، أولها ما وافق فيه آخر كلمة من البيت، آخر كلمة في نصفه الأول، ومثَّل له بقول الشاعر:

تَلْقَى إذَا مَا الأمْرُ كَانَ عَرَمْرَمَا   فِي جَيْشِ رَأْيٍ لا يُفَلُّ عَرَمْرَمُ

وثانيها: ما يوافق فيه آخر كلمة من البيت أول كلمة في نصفه الأول، ومثاله قول الشاعر:

سَرِيعٌ إلى ابْنِ العَمِّ يَلْطُمُ وَجْهَهُ   وَلَيْسَ إلى داعِ النَّدى بِسَرِيعِ

وثالثها: ما يوافق فيه آخر كلمة من البيت بعض ما فيه، ومثاله قول الشاعر:

عَمِيدُ بَنِي سُلَيْمٍ أَقْصَدَتْهُ   سِهَامُ المَوْتِ وَهِي لَهُ سِهَامُ

ثم ختم حديثه عن فنون البديع الخمسة بالحديث عن المذهب الكلامي، ويقول: إن الجاحظ هو الذي دعاه بهذا الاسم وإنه باب لم يجئ في القرآن منه شيء وهو ينسب إليه التكلف ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وهو ـ لهذا ـ يقتصر في أمثلته على غير القرآن والحديث، ولم يذكر له تعريفًا كما صنع في الأنواع الأربعة السابقة، وأمثلته التي ذكرناها لم تبلغ من حيث الإفاضة مثل ما أفاض في غيره، ويبدو من هذا كله أن ابن المعتز ـ وهو الشاعر الرقيق الحس والناقد الحاد الذكاء ـ لم يرتح لهذا الفن لجريه على طريقة أهل المنطق، كما جاء في كتاب «الصناعتين» لأبي هلال[1].

ونرى أبا هلال يحذو حذو ابن المعتز في أن القرآن يخلو من استخدام المذهب الكلامي، أو هو ـ على الأقل ـ يردد ما قاله ابن المعتز، ثم يمثل له من غير القرآن ومن غير الأحاديث، والباحث المدقق إذا نظر إلى هذا الفن ـ المذهب الكلامي ـ من حيث تعريفه عندهم ومن حيث الأمثلة التي ذكروها ـ تطبيقًا عليه ـ لا يعدم له مثالاً أو أمثلة في القرآن الكريم بله السُّنَّة، والحُجَّة

---

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٢٩٨-٢٩٩.

التي ذكروها وهي «التكلف» . ليست بلازمة في المذهب الكلامي ، وهي عيب اشترط النقاد براءة البديع كله منه لا المذهب الكلامي فحسب .

فكلما استخدم القرآن البديع بألوانه المختلفة ـ خاليًا من كل عيب ـ استخدم ـ كذلك ـ المذهب الكلامي ـ خاليًا من عيب التكلف وغيره من العيوب الأخرى .

• وحسبنا أن نذكر أنَّ له أمثلة من القرآن ، لا تختلف مع ما ذكروه من أمثلة عليه من خارج القرآن ، من حيث اندراجها تحت التعريف .

جاء في هامش «الصناعتين» ما يأتي :

«قالوا في تعريفه : هو إيراد حُجَّة للمطلوب على طريقة أهل الكلام ، وهو أن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب .. وعلى ذلك لم يستشهد على المذهب الكلامي بأعظم من شواهد القرآن ، وأوضح الأدلة في شواهد هذا النوع قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء:٢٢) ، قالوا في تقرير ذلك : وتمام الدليل أن تقول : لكنهما لم تفسدا فليس فيهما آلهة غير الله[1] .

وهذا الذي ذكره حق ، ومن أمثلته ـ أيضًا ـ في القرآن : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (يس:٧٩) .

وقوله : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (يس:٨١) .

وقوله : ﴿ كَمَا بَدَأْكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (الأعراف:٢٩) .

وقوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ (الأنبياء:١٠٤) .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ (مريم:٦٦،٦٧).

---

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٣٢٦ .

وغير ذلك كثير ، وإذا جاز لابن المعتز ومن بعده أبو هلال أن ينكرا وجود هذا النوع في القرآن ، ابن المعتز بالأصالة وأبو هلال بالتقليد ، فالأمر يسير لتقدم زمنيهما ، فكيف يجوز لبعض المحدثين متابعتهما في ذلك ؟

فقد رأينا الدكتور شوقي ضيف يذكر عن ابن المعتز هذه الشُّبهة ـ شُبهة التكلف في المذهب الكلامي وعدم وروده في القرآن لذلك ـ دون أن يُنبِّه إلى وجه الصواب فيها على كثرة معالجته لكثير من المشاكل التي تعرَّض لها كتاب « البديع » .

● **محاسن الكلام :**

أما الأنواع الأخرى التي خصَّها باسم محاسن الكلام فقد ذكر منها : الالتفات ـ الاعتراض ـ الرجوع ـ حسن الخروج ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم ـ تجاهل العارف ـ الهزل يُراد به الجد ـ حسن التضمين ـ التعريض والكناية ـ الإفراط في الصفة ـ حسن التشبيه ـ لزوم ما لا يلزم ـ حسن الابتداء .

هذه إشارة سريعة لبديع ابن المعتز ، وهو أول كتاب حاول فيه وضع ضوابط للفنون البلاغية ، ولا شك أن ابن المعتز قد أفاد من إشارات السابقين مثل الجاحظ والأصمعي ، خاصة وأنه نقل عن الأصمعي بعض أمثلته في الالتفات ، وهي قول الشاعر :

أتنسَى إذْ تُوَدِّعُنَا سُلَيْمَى   بِعُودِ بَشَامَةٍ سُقِيَ البَشَامُ

لكنه ينفرد عن السابقين بمحاولته الجادة ، وتصنيفه المتخصص ، ولذلك كان لكتابه الآثار الآتية :

أولاً : أنه أول كتاب صُنِّف في البلاغة العربية ، وتخصص فيها ولم يخلطها بغيرها من فنون الأدب كما هو الحال عند الجاحظ والأصمعي .

ثانيًا : أنه كشف عن زيف مدرسة البديع .. وادعائها أنها صاحبة الفضل فيه، فالقرآن الكريم والأدب النبوي والأدب الجاهلي ـ شعره ونثره ـ والأدب

الإسلامي ـ منظومه ومنثوره ـ هذه المصادر غنية بذكر الأمثلة التي تدل على أصالة هذا الفن وعمق جذوره في الآداب الرفيعة .

ثالثًا : وكتاب «البديع» ـ بعد ـ دراسة فنية لعناصر الجمال في الفن الأدبي جُمِعَ فيه محاسن الكلام التي ازدان بها كلام الفحول من الجاهليين والإسلاميين ووردت في الكتاب الكريم ، وفي حديث الرسول ﷺ ، وكلام الصحابة والتابعين[1] .

رابعًا : أنه مهَّد لنوعين من الدراسات :

النوع الأول : البحث البلاغي نفسه ، حيث كان هذا الكتاب الشعاع الذي أمسك به مَنْ جاء بعده من العلماء فعكفوا على دراسة الوجوه البلاغية وجمعها وتصنيفها والمضي بها خطوات إلى الأمام عصرًا بعد عصر حتى اكتملت معالمها وأصبحت فنًا مستقلاً بعد أن كانت مزيجًا مع الفنون الأخرى كاللغة والأدب ، وخاصة النقد .

والنوع الثاني : أنه مهَّد لنوع جديد من النقد الذي كان له عظيم الأثر في إثراء النقد الأدبي عند العرب ، واكتمال ووضوح دعائمه ، هو نقد «الموازنات».

● **قدامة بن جعفر :**

وجاء قدامة بن جعفر (٢٧٥ ـ ٣٣٧هـ) بعد ابن المعتز ، ووضع كتابه المعروف «نقد الشِّعر» وقد تحدَّث فيه عن البديع وفنونه بجانب حديثه عن الشِّعر ومعايير الجودة فيه حيث اللفظ ، والوزن ، والقافية ، والمعنى ، والذي يهمنا من هذا الكتاب حديثه عن البديع لاتصاله بموضوعنا .

---

(١) البيان العربي : دكتور بدوي طبانة ص ٩٨ .

والبديع ـ عند قدامة ـ ثمانية وعشرون فنًّا وافق ابن المعتز في ثمانية منها وهي : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، والالتفات ، والاعتراض ، ويسميه «التتميم» ، والإفراط في الصفة ويسميه «الغلو والتشبيه»[1] .

وينفرد قدامة بالأنواع الآتية :

١- صحة التقسيم ٢- صحة المقابلات ٣- صحة التفسير

٤- ائتلاف اللفظ مع المعنى ٥- المساواة ٦- الإشارة

٧- الإرداف ٨- التمثيل

٩- ائتلاف اللفظ مع الوزن ١٠- ائتلاف المعنى مع الوزن

١١- ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت

١٢- التوشيح ١٣- الإيغال ١٤- اعتدال الوزن

١٥- ائتلاف لفظ مع لفظ ١٦- تلخيص الأوصاف ١٧- التوازي

١٨- المضارعة ١٩- عكس اللفظ أو عكس ما نظم من بناء

٢٠- اتساق البناء والسجع[2] .

وليس يعنينا من قدامة أكثر من هذا فإنه أمسك بالشعاع الذي أشعل فتيلته ابن المعتز واستطاع أن يوسع دائرة الضوء في نفس الاتجاه .

بَيْدَ أنَّ ما انتهى إليه ابن جعفر لم يكن موضع رضا عند المتأخرين نقادًا وعلماء ، وفضَّلوا عليه ابن المعتز في كل موضع اختلف معه فيه قدامة ، ولعل السر في ذلك أن قدامة قد سلك في كتابه مسلكًا منطقيًّا جافًّا متأثرًا بالثقافة اليونانية القديمة .

---

(١) وقع خطأ في المصدر المذكور إذ قال : توارد معه قدامة في سبعة ، والصحيح : ثمانية .

(٢) نقد الشعر .

● ابن طباطبا :

وجاء بعده ابن طباطبا[1] فوضع كتابه «عيار الشعر» وهو يشرِّع فيه لصناعة الشعر ، وما ينبغي أن يلم به الشاعر فلا بد له من طبع وذوق ، قبل الوقوف على عروضه ، ولا بد من معرفة علمي اللغة والنحو ، والوقوف على أيام العرب وشِعرهم ونثرهم وحكمهم وأمثالهم ، ولا بد من معرفة مناهج فن الكلام جزله وعَذبه ، ولا بد من الوقوف على ما يشين الشِّعر من سخيف الكلام وقبيحه ، ولا بد فيه من تمكين القوافي وإصابة الألفاظ مواضعها .

وهو يُفرِّق بين حدي المنثور والمنظوم ، ويتحدث عن أنواع المنظوم فيقسِّمه إلى ما حسن لفظه وجاد معناه وما حسن لفظه دون معناه ، أو معناه دون لفظه ، وما تأخر لفظه ومعناه .

ويتحدث عن طريقة العرب في التشبيه ـ وهو من أهم مباحثه ـ ويقسمه إلى وجوه : تشبيه الشيء بالشيء صورة .. كقول امرئ القيس :

كَـأنَّ عُيُـونَ الـوَحْشِ حَـوْلَ خِبَائِنَـا وَأرْحُلِنَـا الجِـزْعَ الَّـذِي لَـمْ يُثَقَّـبِ

ثم تشبيه الشيء بالشيء لونًا وصورة كتشبيه الثغر بالأقحوان ، إذ لونهما وصورتهما سواء ، ثم تشبيه الشيء بالشيء صورة ولونًا وحركة وهيئة ؛ كقول الشاعر :

الشَّـمْسُ كَـالمِرْآةِ فِـي كَـفِّ الأشَّـلِ لَمَّـا رَأيْتُهَـا بَـدَتْ فَـوْقَ الجَبَـلِ

ثم تشبيه الشيء بالشيء حركة وهيئة كقول الأعشى متغزلاً :

كَـأنَّ مِشْـيَتِها مِـن بَيْـتِ جَارَتِهَـا مَـرُّ السَّـحَابَةِ لا رَيْـثٌ وَلاعَجَـلُ

ثم تشبيه الشيء بالشيء معنى لا صورة ، كتشبيه الجواد بالبحر ، والشجاع بالأسد ، وماضي الأمور بالسيف .

---

(١) هو محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (توفي سنة ٣٢٢ هـ) : معجم الأدباء : ١٥٦/١٨.

ثم تشبيه الشيء بالشيء حركة وبطئًا وسرعة ؛ كقول امرئ القيس يصف فرسه :

مِكَـرٍّ مِفَـرٍّ مُـذْبِرٍ مُقْبِـلٍ مَعًـا كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِن عَلِ

وتشبيه الشيء بالشيء لونًا كتشبيه الخمر بالدم ، والليل بلون الغراب . وتشبيه الشيء بالشيء صوتًا كتشبيه صوت النبل في الحروب ببكاء الثكلى ، ويتحدث عن أدوات التشبيه : الكاف ، وكأن ، ومثل ، ويكاد ، وتخال .

كما يتحدث عن التشبيهات المعيبة لمخالفتها لمعايير الجمال ، كشدة الغلو فيها ، أو نبو التشبيه عن الذوق ، كما تحدَّث عن التشبيهات البديعة الغريبة .

ويتحدث عن الكناية ويسميها «التعريض» ، ويعرض لطائفة من الأبيات المستكرهة الألفاظ المتفاوتة النسج ، ولأخرى أفرط الشعراء في معانيها وبالغوا مبالغة شديدة كقول أبي نواس يمدح الرشيد .

وَاخَفْـتَ أهـلَ الشِّـرْكِ حَتَّـى أنَّـهُ لَتَخَافُـكَ النُّطَـفُ الَّتِـي لَـمْ تُخْلَـقِ

وينقد قول زهير :

وَأعْلَـمُ مَـا فِـي اليَـوْمِ وَالأمْـسِ قَبْلَـهُ وَلَكِنَّنِـي عَـنْ عِلْـمِ مَـا فِـي غَـدٍ عَمَـى

فكلمة «عمى» عجيبة الموقع ، ونسى أن يأخذ عليه كلمة «قبله» فقد عدَّها النقاد حشوًا لا معنى لها .

وفي الكتاب كثير من مسائل الأدب والنقد والبلاغة ، وقد رأينا أن الأساس الذي بنى عليه ابن طباطبا نقده يعتمد في كثير من الأحيان على التوجيه البلاغي ومقاييس البيان .

● أبو هلال العسكري :

وتلا هؤلاء أبو هلال العسكري ، ووضع كتابه «سر الصناعتين» سنة ٣٩٤هـ ، ويُعد هذا الكتاب نقطة تحول في البيان العربي تناول فيه البلاغة بروح الناقد ، أو النقد بروح البليغ ، وقد حدَّد أبو هلال وظيفة البلاغة في مقدمة كتابه المذكور . ونوجز ما انتهى فيها فيما يأتي :

أولاً : أنها وسيلة فهم الإعجاز في كتاب الله ، والإعجاز عنده يقوم على الحُجَّة والبرهان ، وعلم البلاغة هو الذي يقدِّم ذلك البرهان ويكشف عنه .

ثانيًا : وصنَّاع الأدب ومنشئوه يقفون على الجيد الذي يقصدونه ، والقبيح الذي ينبغي أن يتحاشوه ، والأديب الذي يعدم هذا العلم يمزج الصفو بالكدر ، ويستعمل الوحشي العكر ، فيجعل نفسه مهزلة للجاهل ، وعبرة للعاقل .

ثالثًا : ورواة الأدب يعتبرون هذا العلم في معرفة الجيد الذي يُروَى ، والردىء الذي ينبغي أن يُطرح ، وبهذا المقياس عاب أبو هلال - الأصمعي - الذي اختار قصيدة للمرقش جاء في مطلعها :

هَـلْ بِالـدِّيَارِ أنْ تُجِيـبَ صَـمَمْ لـو أنَّ حَيًّـا نَاطِقًـا كَلَّـمْ[1]

يقول أبو هلال : «ولا أدري على أي وجه صرف اختياره إليها ، وما هي بمستقيمة الوزن ، ولا مونقة الروى ، ولا سلسة اللفظ ، ولا جيدة السبك ، ولا متلائمة النسج»[2].

وبه أيضًا عاب المفضل لأنه كان يختار من الشِّعر ما يقل تداول الرواة له ، ويكثر فيه الغريب[3] ، ويعلل نقده للمفضل كما علله للأصمعي فيقول :

«لأن الغريب لا يكثر في كلام إلا أفسده ، وفيه دلالة الاستكراه والتكلف»[4].

رابعًا : وعلماء العربية والنقاد إفادتهم من معرفة البلاغة تفوق إفادة الأدباء والرواة ، لأن البلاغة تقدِّم لهم المقاييس التي يعتمدونها في الحكم على الأدباء والتمييز بين آثارهم .. وصاحب العربية إذا أخل بطلب هذا العلم بان جهله ، وظهر نقصه[5].

---

(١) البيان العربي : دكتور بدوي طبانة ص ١٠٧ .

(٢) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٣٨ .

(٣-٤) المصدر السابق ص ٤ .

(٥) المصدر السابق ص ٣ .

● قيمة الكتاب :

وكتاب «الصناعتين» غنى بالدراسات النقدية والأدبية والبلاغية ، وتظهر فيه سمة التقعيد ورسم الحدود وتقرير الموضوعات واستقلال البحث البلاغي . وقد درس المؤلف من فنون البلاغة خارج دائرة البديع الفنون الآتية : التشبيه ـ الإيجاز والإطناب ـ السجع والازداوج .

ومعروف أن التشبيه من مباحث البيان ، والإيجاز والإطناب من مباحث المعاني ، أما السجع والازدواج فمن مباحث البديع ، وللعسكري عذره في إخراجهما من دائرة البديع لأن مسائل العلوم الثلاثة لم تتضح كل الوضوح في عصره .

أما فنون البديع التي ذكرها في كتابه هذا فقد بلغت خمسة وثلاثين وجهًا هي :

١- الاستعارة	٢- التطبيق
٣- التجنيس	٤- المقابلة
٥- صحة التقسيم	٦- صحة التفسير
٧- الإشارة .	٨- الإرداف والتوابع
٩- المماثلة	١٠- الغلو
١١- المبالغة	١٢- الكناية والتعريض
١٣- العكس والتبديل	١٤- التذييل
١٥- الترجيع	١٦- الإيغال
١٧- الترشيح	١٨- رد الأعجاز على الصدور
١٩- التكميل والتتميم	٢٠- الالتفات
٢١- الاعتراض	٢٢- الرجوع
٢٣- تجاهل العارف	٢٤- الاستطراد
٢٥- المؤتلف والمختلف	٢٦- السلب والإيجاب
٢٧- الاستثناء	٢٨- المذهب الكلامي

٢٩- التشطير ٣٠- المجاورة
٣١- الاستشهاد والاحتجاج ٣٢- التعطف
٣٣- المضاعف ٣٤- التطريز
٣٥- التلطف[١].

هذه أنواع البديع كما ذكرها أبو هلال وقد قال إنه زاد على ما ذكره المتقدمون ستة أنواع بينها وهي : التشطير ، والمجاورة ، والتطريز ، والمضاعف ، والاستشهاد ، والتلطف ، وقد أفاض في شرح هذه الفنون جميعًا وأكثر من إيراد الأمثلة عليها .

وجاء سهوًا في كتاب «البيان العربي» للدكتور بدوي طبانة أن أبا هلال زاد فنون البديع المعروفة عند المتقدمين سبعة فنون ، وهي كما ذكرنا آنفًا ستة وليست بسبعة .. كما وقع في نفس الكتاب المذكور خطأ آخر هو إسقاط نوع مما زاده أبو هلال وإثبات آخر مما لم يزده مكانه ، ومن الخير أن نذكر ما جاء في المصدرين ليسهل علينا إدراك الحقيقة .

أبو هلال يذكر في كتابه الفنون التي زادها على الترتيب كما يلي : التشطير ـ المجاورة ـ التطريز ـ المضاعف ـ الاستشهاد ـ التلطف .

والدكتور طبانة يذكرها كما يلي : المجاورة ـ الاستشهاد ـ التعطف ـ المضاعفة ـ التطريز ـ التلطف ـ المشتق .

وبنظرة عابرة يتضح لنا أمران :

أولهما : أن الدكتور طبانه أسقط مما زاده أبو هلال «التشطير» وهو النوع الأول عند أبي هلال .

ثانيهما : أنه زاد على ما ذكره أبو هلال نوعين . هما : التعطف والمشتق[٢].

---

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٢٠٤ .

(٢) انظر : البيان العربي دكتور بدوي طبانه ص ١٢١ ، ١٢٢ ـ الطبعة الثانية ـ الأنجلو .

● الطبع والصنعة :

وقد كان القرن الرابع الهجري حافلاً بجهود العلماء والنقَّاد ، وساعد على جدية هذه الجهود وعظمة شأنها ، أن وجد مذهبان في الشعر ، مذهبان متقابلان لكل منهما أنصار وأتباع ، ولكل منهما أعداء وقادحون .

أحدهما : مذهب «المطبوعون» الذين لا يتكلفون في صناعة الشعر ، بل يسيرون مع طبائعهم ويمثل هذا النوع أبو عبادة البحتري .

وثانيهما : مذهب «المتكلفون» الذين يبعدون في معانيهم ويحتالون لإيراد «البديع» في شِعرهم يزينونه به ، وإن كان ذلك على حساب المعنى ، وجودة التعبير ، ويمثل هؤلاء أبو تمام .

وقد رأينا أن أول مَن حمل حملة شعواء على أصحاب البديع هو ابن المعتز ، بل إنه وضع كتابه للرد عليهم خاصة ، وأنهم لم يأتوا بجديد لم يعرفه السابقون بل إن إسرافهم فيه جعل له بهم شبه إضافة .

نقول : كانت هذه البوادر كلها سببًا في نشأة الخصومة الأدبية والفكرية بين أنصار القديم والطبع ، وأنصار الجديد والصنعة ، وهذه الخصومة لم تقم على غير أساس ، بل كانت تعتمد على فروق في الأساليب بين المذهبين ، وهذه الفروق لم تتضح إلا من كتابات البلاغيين ، ولم تعتمد على شيء مثل اعتمادها على الوجوه البلاغية التي يستخدمها الشاعر أو الناثر في أسلوبه للكشف عن معانيه .

● صلة البلاغة بقضايا النقد الكبرى :

ونتيجة لذلك عالجت البلاغة قضيتين من أخطر قضايا النقد ، وهما قضية اللفظ والمعنى ، وقضية الموازنة بين معنى ومعنى .

وليس من اليسير معالجة هاتين القضيتين في جزء من بحث ، ولذلك فإننا نتناولهما في إيجاز نتبين من خلاله صلة البلاغة بقضايا النقد الكبرى ، ومدى تأثيرها في صقل الأساليب وإجادة المعنى .

أما قضية اللفظ والمعنى فإن النقاد ينقسمون حولها ثلاثة أقسام :

فريق يُقدِّم المعنى على اللفظ ، وينسب إليه كل فضل في صناعة الأدب ونقده ، يقول ابن رشيق : «اللفظ جسم روحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصًا في الشِّعر ، وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الأقسام من العرج والشلل والعور ، وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح ، كذلك إذا ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الروح ، ولا نجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ ، وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدَّمت من أدواء الجسوم والأرواح ، فإن اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتًا لا فائدة فيه ، وإن كان حسن الطلاوة في السمع ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأي العين ، إلا أنه لا ينتفع به ، ولا يفيد فائدة ، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لا نجد له معنى لأنَّا لا نجد روحًا في غير جسم البتة»[1].

فابن رشيق ـ وإن بدا أنه يسوِّي بين اللفظ والمعنى ـ فإنه يقدِّم المعنى على اللفظ ما دام المعنى روحًا والجسم هو اللفظ ...

وكذلك يرى ابن الأثير : «اعلم أن العرب كما كانت تعني بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأشرف قدرًا في نفوسها ، فأول ذلك عنايتها بالألفاظ لأنها كانت عنوان معانيها ، وطريقًا إلى إظهار أغراضها ، أصلحوها وزيَّنوها وبالغوا في تحسينها ليكون ذلك أوقع في النفس ، وأذهب بها في الدلالة على القصد ، فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسَّنوها ، ورقَّقوا حواشيها وصقلوا أطرافها فلا تظن أن العناية إذ ذاك بالألفاظ فقط ، بل هي خدمة منهم للمعاني ، ونظير ذلك إبراز الصور

---

(١) العمدة ـ لابن رشيق : ٨٢/١ .

الحسناء في الحلل الموشية ، والأثواب المحبرة ، فإنَّا قد نجد من المعاني الفاخرة ما يشوِّه من حسنه بذاذة لفظه وسوء العبارة عنه»[1] .

وابن الأثير ـ في هذا النص ـ أقوى دلالة على بيان مذهبه من ابن رشيق ـ وإن سار هو على طريقته في التقرير .

ويرى الجاحظ[2] أن أبا عمرو الشيباني كان لا يحفل إلا بالمعنى ، فمتى كان المعنى رائقًا حسنًا ظل كذلك في أي عبارة وُضِعَ فيها ، ورأيه هذا مطابق لما حكاه «أرسطو» عن السوفسطائي «بريزون» من أنه لا حسن ولا قبح في اللغة ، ففي أي الكلمات وضعت الفكرة فالمعنى سواء[3] .

ومن أنصار المعنى ، الآمدي من النقاد ، وابن الرومي والمتنبي من الشعراء ، فهؤلاء يطلبون صحة المعنى ، ولا يبالون ـ أحيانًا ـ حيث وقع من هجنة اللفظ وخشونته[4] .

على أنَّ من هؤلاء مَن لا يهمل اللفظ في العمل الأدبي ، بل ينظر إليه نظرة تقدير واحترام ، ولكنها نظرة ليست مثل نظرته إلى المعنى فهو السابق ، وإليه يعزَى كل فضل .

والذي حمل هذا الفريق على التعصب لناحية المعنى ، ما رأوه من جودة السبك دون العناية بجمال المعنى عند أصحاب التصنع الذين اتخذوا الأدب صناعة ، ولم يروا فيه إلا وصف الألفاظ وجودة السبك ، دون العناية بخطر الموضوع ، وأهمية الموقف ، وصدق المعنى وحسن الدلالة .. وهذا أمر ضاق به كثيرون من النقَّاد .

يقول الآمدي : «وقد رأيتُ جماعة من متخلفي هذه الصناعة يجعلون كل همهم مقصورًا على الألفاظ التي لا حاصل وراءها ، ولا كبير معنى تحتها .

---

(١) المثل السائر لابن الأثير ص ١٣٧ .

(٢) الحيوان للجاحظ : ١٣١/٣ .

(٣) النقد الأدبي الحديث : دكتور محمد غنيمي هلال ص ٢٦٠ .

(٤) العمدة لابن رشيق : ٨٣/١ .

وإذا أتى أحدهم بلفظ مسجوع ، على أي وجه كان من الغثاثة والبرد ، يعتقد أنه أتى بأمر عظيم ولا شك في أنه صار كاتبًا مفلقًا ، وإذا نظر إلى كُتَّاب زماننا وُجِدوا كذلك ، فقاتل الله القلم الذي يجري في أيدي الجهال الأغمار»[1] .

● **تقديم اللفظ على المعنى :**

ويقابل هذا الرأي اتجاه آخر يرى القائلون به أن الصياغة هي المقوِّم الأساسي للأدب ، فلا بد أن يستوفى الأسلوب مقوِّماته اللفظية ، أن تكون الجمل مستوفاة خصائص الصياغة الفنية ليدخل الكلام في باب الأدب لأن المعاني مشاع بين الأدب وغيره من العلوم ، ولكن الذي يُفرِّق بين الأدب والعلوم الأخرى إنما هي اللغة بما فيها من فنون تعبيرية وخصائص فنية ، ولذلك فإن المعاني العلمية يمكن أن تؤدى في أساليب أدبية إذا سلك كاتبها مسالك المتأدبين .

وهذا الرأي يسمو بالألفاظ في نظرته لها ، ويجعل المعنى دونها وإن كانت الصلة بين العنصرين وثيقة العرى .

من هؤلاء الجاحظ حيث يقول : «والمعاني مطروحة على الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشِّعر صياغة وضرب من النسج وجنس من التصوير»[2] .

ومنهم قدامة بن جعفر ، إذ يرى أن المعاني مادة الشِّعر ، واللفظ صورته ، ولا ينبغي الحكم على الشِّعر بمادته ـ أي معناه ـ وإنما يُحكم عليه بصورته ـ أي عباراته ـ كما لا يُعاب النجار من حيث رداءة الخشب في ذاته ، وإنما يُمدح أو يُذم من حيث صناعته هو .

---

(١) الموازنة للآمدي ص٣٨٩-٣٩١.

(٢) الحيوان للجاحظ : ١٣١/٢ ، ١٣٢.

ومنهم ابن خلدون إذ يعتبر الألفاظ أصلاً والمعاني تابعة لها ، وهو في هذا يردد ما ذهب إليه الجاحظ ولكنه غالى في قيمته ، وأفرط في حكمه ، وفي هذا يقول ابن خلدون : « ... وفي طوع كل فكر منها ـ أي المعاني ـ ما يشاء ويرضى ، فلا يحتاج إلى صناعة ، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج إلى الصناعة ، وكذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه ... باعتبار تطبيقه على المقاصد ، والمعاني واحدة في نفسها ، وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان ـ إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن ـ بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه »[1].

وعند أصحاب هذا الرأي : أنَّ الأدب عبارة جميلة وكفى .. وقد سئل الأصمعي : مَن أشعر الناس ؟ ... قال : « مَن يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرًا ، أو إلى المعنى الكبير فيجعله بلفظه خسيسًا »[2] .

ويقول المرزوقي : « فمن البلغاء مَن يقول : فقر الألفاظ وغررها ، كجوهر العقود ودررها ، فإذا رسم أغفالها بتحسين نظومها ، وحلَّى أعطالها بتركيب شذورها فراق مسموعها وجاء ما حرر منها مصفًّى من كدر العيِّ والخطل ، مقوَّمًا من أود اللحن والخطأ ، يموج في حواشيه رونق الصفاء لفظًا وتركيبًا ، قبله الفهم والتذ به السمع ، وإذا ورد على ضد هذه الصفة صدئ الفهم منه ، وتأذَّى به تأذي الحواس بما يخالفها »[3] .

وقد بحث ابن سنان الخفاجي معايير حسن اللفظ فذكر منه تباعد الحروف في المخرج ، وذلك لأن الحروف أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر ، والألوان المتباعدة إذا جُمِعت كانت في النظر أحسن من المتقاربة ، وجل كلام العرب مبني على التأليف من الحروف المتباعدة ، ولحروف الحلق الستة ميزة خاصة في القبح إذا تقاربت مثل « الهقخع » ، ومن معايير حسن

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٨ - ط . القاهرة .

(٢) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ١٠١ .

(٣) شرح ديوان الحماسة ص ٥ ، ٦.

اللفظ حسن وقعه على السمع فتسمية الغصن غصنًا أو فننًا أحسن من تسميته عسلوجًا .

ومن معايير جمال اللفظ عن ابن سنان ألا تكون الكلمة وحشية غير مألوفة الاستعمال ، وقد مثَّل لذلك بقول أبي تمام :

.... بِـلا طَـائِرٍ سَـعْدٍ ، وَلا طَـائِرٍ كَهْـلِ

إذ المراد بـ « الكهل » هنا : الضخم ، وليس هذا المعنى معروفًا لها[1] .

وألا تكون الكلمة مبتذلة أي أخلقها الاستعمال ، ومثَّل لها بقول ابن نباتة :

فَقَـدْ رَفَعَـتْ أبْصَـارَهَا كُـلُّ بَلْـدَةٍ مـن الشَّـوْقِ حتَّـى أوْجَعَتْهَـا الأخَـادِعُ

فكلمة « أوجعتها » عامية مبتذلة .

وأن تكون الكلمة جارية على قواعد اللغة ، وأن تكون قليلة الحروف ، لذلك عاب قول ابن نباتة أيضًا :

فَإيَّـاكُمو أن تَكْشِـفُوا عَـنْ رءُوسِـكُمْ ألا إن مغنَاطيسَـــــهُنَّ الـــــذَّوَائِبُ

لأن كلمة « مغناطيسهن » كثيرة الحروف .

ويورد معيارًا آخر لجمال اللفظ : ألا تكون الكلمة عُبِّر بها عن معنى يُكره ذكره ، فإذا وردت غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت ، مثل كلمة « جنابة » في قول الشريف الرضي متغزلاً :

سَـلامٌ علـى الأطْـلالِ لا عَـنْ جنابَـةٍ وَلَكِـنْ يأسًـا حِـينَ لـم يَبْـق مَطْمَـعُ

وصفوة القول : إنَّ اللفظ المفرد لا يكون جميلاً عند ابن سنان إلا إذا خلا من ثمانية عيوب ذكرها ومثَّل لها ، فكان بلاغيًّا ناقدًا في آن واحد[2] .

ويسوق قدامة بن جعفر نصًّا يبيِّن فيه مقوِّمات جمال الألفاظ فيقول : « وأحسن البلاغة الترصيع ، والسجع ، واتساق البناء ، واعتدال الوزن واشتقاق لفظ من لفظ وعكس ما نظم من بناء وتلخيصه بألفاظ مستعارة وإيراد الأقسام موفورة التمام وتصحيح المقابلة بمعان متعادلة ، وصحة التقسيم باتفاق النظوم

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ٦٣ .

(٢) راجع سر الفصاحة ـ تحقيق عبد المتعال الصعيدي ص ٦٣-٨٣.

وتلخيص الأوصاف بنفي الخلاف ، والمبالغة في الرصف بتكرير الوصف ، وتكافؤ المقابلة بالتوازن وإرداف اللواحق وتمثيل المعاني»[1] .

وهكذا تصرف همم هذا الفريق إلى جمال الألفاظ ، وجودة السبك ، ظنًّا منهم أنَّ الأقدمين ذهبوا بالمعاني كلها ولم يتركوا منها ضرعًا لمحتلب ، فكان لابد من التسابق في ميدان اللفظ وروعة التعبير .

● **قيمة هذا المذهب :**

ولهذا المذهب خطره في الأدب ونقده ، وإن تطرَّف بعض دعاته كابن خلدون وقدامة ، ذلك لأن الأسلوب أو الأداء اللفظي هو دليل المعنى وآلة البيان ، ولولا الأسلوب ما وقفنا على ما يجول في نفس الأديب من معان وأخيلة وعواطف وصور أدبية ، فليس الأديب تمثالاً صامتًا وإنما هو طائر يغرد ، وتغريده هو الذي يكشف لنا عن عالَمه الفسيح ، والطعام الطيب إذا قُدِّم في أوانٍ نفيسة كان أشهى للنفس وأمتع للذوق .

● **نظرة عادلة :**

الرأيان اللذان قدَّمناهما متقابلان فهما يصنعان مشكلة ، ومن هنا تبدو قيمة رأي فريق ثالث .

ويرى هذا الفريق ألا تفرقة في العمل الأدبي ونقده بين معانيه وألفاظه ، فهم ـ إذن ـ يسوون بين اللفظ والمعنى ، ولكل منهما معايير حسن وجمال ، ولكل منهما وظيفة يؤديها لكن ليس منفردًا بل باعتبار ارتباطه بالآخر ، فإذا توفرت لهما أوصاف الجمال قدَّما نموذجًا رائعًا من الأدب يمتع من أي جهة نظر إليه سواء من جهة لفظه ، أو من جهة معناه مثل سلكي الكهرباء السالب والموجب عندما يتماسان ينطلق منهما الشعاع الذي يبدد طبقات الظلام وإن كان كثيفًا ، وإن أزيل اتصالهما فلا نحس لأي منهما أثرًا ، فالمعنى بدون اللفظ جنين في ضمير الغيب ، واللفظ بدون معنى لا يعتبر .

---

(١) جواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر ص ٣ ، ٤ .

وهؤلاء على حق فيما ذهبوا إليه لأنهم يحلون تلك المشكلة التي رأيناها بين الفريقين السابقين ، ولأنهم يمثلون الواقع .. فهي نظرة معتدلة حرية بالاعتبار .

ومن أقدم النصوص في هذا المذهب صحيفة بشر بن المعتمر المعتزلي (المتوفى عام ٢١٠ هـ) وقد ذكرها الجاحظ في «البيان والتبيين»[1] ... وفيها ينصح بترك التوعر والتكلف «فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك .. ومَن رام معنى كريمًا فيلتمس له لفظًا كريمًا . فإنَّ حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما» .

وفي موضع آخر يقول : «أن يكون لفظك رشيقًا عذبًا وفخمًا سهلاً ، ويكون معناك ظاهرًا مكشوفًا وقريبًا معروفًا» .

والباحث يرى أنه في الموضعين يتحدث عن جمال اللفظ وجمال المعنى ، ويسوِّي بينهما ويمضي في الصحيفة مشرِّعًا للأدب ، وناصحًا للأديب .

فهي ـ بحق ـ تشريع فريد في صناعة الأدب وبناء الأسلوب ، لا فرق بين الشكل أو المضمون وكان لهذا التوجيه أثره في تقعيد البلاغة العربية .

وممن يسوون بين اللفظ والمعنى ابن قتيبة ، فخير الشعر ـ عنده ـ ما حسن لفظه ، وجاد معناه ، فإذا قصر اللفظ عن المعنى ، أو حلا اللفظ ولم يكن وراءه طائل كان الكلام معيبًا .

ويسوق نموذجًا على ذلك هو قول الشاعر :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بِالأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

وَشُدَّتْ عَلَى هُدْبِ المَهَارَى رِحَالُنَا ... وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائحُ

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأَبَاطِحُ

ثم يقول : «وهذه الألفاظ أحسن شيء مطالع ومخارج ومقاطع ، فإذا نظرتَ إلى ما تحتها وجدته : ولما قضينا أيام مِنًى واستلمنا الأركان وعالينا الإبل

---

(١) ١/ ١٣٤-١٣٩ .

الأنضاد ومضى الناس لا ينظر مَن غدا الرائح ابتدأنا في الحديث وسارت المطيُّ في الأباطح»[1] .

والشاعر البحتري يرى التسوية بين الألفاظ والمعاني فيقول :

حَجَجٌ تُخْرِسُ الألَدَّ بِألْفَاظٍ فُرَادَى كَالجَوْهَرِ المَعْدُودِ
وَمَعَانٍ لَوْ فَصَّلَتْهَا القَوَافِي هَجَّنَتْ شِعْرَ جَرْوَلٍ وَلَبِيدِ
حُزْنَ مُسْتَعْمَلَ الكَلامِ اخْتِيَارًا وَتَجَنَّبْنَ ظلمةَ التَّعْقِيدِ
وَرَكِبْنَ اللَّفْظَ القَرِيبَ فَأدْرَكْنَ بِهِ غَايَةَ المُرَادِ البَعِيدِ

وعبد القاهر الجرجاني ممن يسوون في صناعة الأدب بين اللفظ والمعنى ، وإن لم يصرح بذلك ، لأنَّا نجده أحيانًا يثنى على اللفظ دون المعنى ، وأحيانًا أخرى يثني على المعنى دون اللفظ ، ولعله كان يقصد الرد على المتطرفين فلام كلا الجانبين لنفي ذلك التطرف إلى جانب دون آخر وغرضه من ذلك إثبات التساوي بين العنصرين : الألفاظ والمعاني .

فتراه يقول دفاعًا عن اللفظ :

« واعلم أن الداء الدوي ، والذي أعيى أمره في هذا الباب ، غلط مَن قدَّم الشِّعر لمعناه ، وأقَلَّ في الاحتفال باللفظ ، وجعل لا يعطيه من المزية ـ إن هو أعطى ـ إلا ما فضل عن المعنى ، يقول ما في اللفظ لولا المعنى ، وهل الكلام إلا بمعناه ؟ فأنت تراه لا يقدِّم شِعرًا حتى يكون قد أُودع حكمة وأدبًا ، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر»[2] .

ويقول : « .. لأنَّا لا نرى متقدمًا في علم البلاغة ، مبرزًا في شأوها ، إلا وهو ينكر هذا الرأي ويعيبه ويزري على القائل له»[3] .

---

(١) الشِّعر والشعراء : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ص ٣ ، ٤ .
(٢) دلائل الإعجاز ـ تحقيق دكتور عبد المنعم خفاجي ص ٥٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٥٤ .

وهذا يدلنا دلالة واضحة على أن عبد القاهر ليس ممن ينحازون إلى المعاني، ويفضلونها على الألفاظ.

ثم يقول بعد جولات واسعة المدى بعيدة العمق يرجع فيها المزية إلى المعنى دون اللفظ: «قد فرغنا الآن من الكلام على جنس المزية وأنها من حيِّز المعاني دون الألفاظ، وأنها ليست لك حيث تسمع بأذنك بل هي حيث تنظر بقلبك، وتستعين بفكرك، وتعمل رويتك وتراجع عقلك، وبلغ القول في ذلك أقصاه، وانتهى إلى مداه»[1].

● **وقفـة:**

والناظر في هذه النصوص يرى أن الرجل ـ عبد القاهر ـ يناقض نفسه، أو أنه ما قال في شأن اللفظ والدفاع عنه إلا بعد نسيان ما قرره في جانب المعنى ونسبة الفضل إليه، وإلا لما صح أن يقع منه هذا التضارب الذي لا يخفى شأنه على إنسان، ولا مخرج من هذا الإشكال إلا أن نقرر ما قلناه في مطلع الحديث عنه من أنه حين حمل على مَن يُفضِّل المعاني على الألفاظ إنما كان يضع نصب عينيه مغالاة القائلين بها الرأي، وعندما حمل على مَن يُفضِّل الألفاظ على المعاني كان كل همه أن يدفع مغالاتهم وتطرفهم فيها.

على أن في كتابه هذا ـ دلائل الإعجاز ـ نصوصًا يمكن أخذ رأي عبد القاهر من النظر إليها في وضوح.

ورأيه الذي يصل إليه الباحث هو المساواة بين العنصرين دون حيف منه على أحدهما لحساب الآخر، فهو يقول: «ولا جهة لاستعمال هذه الخصال ـ يقصد حسن الدلالة ـ غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته .. ويختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه وأتم له، وأحرى بأن يكسبه نبلاً ويظهر فيه مزية»[2].

---

(١) دلائل الإعجاز ـ تحقيق دكتور عبد المنعم خفاجي ص ١٠٤.

(٢) المرجع السابق ص ٥٧.

ويقول : «فقد اتضح إذن اتضاحًا لا يدع مجالاً للشك أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلمة مفردة .. وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ»[1] .

ولا ينسى عبد القاهر في كل ذلك فضيلة النظم التي من أجلها وضع أصول الكتاب ، فإنكاره لمزية اللفظ ـ مفردًا ـ إنكار ـ بدلالة اللزوم ـ لمزية المعنى المفرد ـ ولذلك فهو يقول : «علمتَ ـ بفتح التاء ـ أن الفصاحة والبلاغة ، وسائر ما يجري في طريقهما أوصاف راجعة إلى المعاني وإلى ما يدل عليه بالألفاظ دون الألفاظ أنفسها لأنه إذا لم يكن في القسمة إلا المعاني والألفاظ ، وكان لا يعقل تعارض في الألفاظ المجردة إلا ما ذكرت لم يبق إلا أن تكون المعارضة معارضة من جهة ترجع إلى معاني الكلام المعقولة ... دون ألفاظه المسموعة»[2] .

ذلك هو رأي عبد القاهر في قضية اللفظ والمعنى ، وهو رأي حرى بالقبول لخلوه من التصرف ولتمثيله للواقع .

وله في أسرار البلاغة ما يؤيد هذه الفكرة ، يقول فيه : «الألفاظ خدم للمعاني والمصرِّفة في حكمها ، وكانت المعاني هي المالكة سياستها المستحقة طاعتها ، فمَن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته ، وأحاله عن طبيعته وذلك مظنة من الاستكراه»[3] .

وهو في هذا النص يدفع الغلو من جهة اللفظ ، وإهمال المعنى .. وقبله يقول : «فقد تبيَّن لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة

---

(١) دلائل الإعجاز ـ تحقيق دكتور عبد المنعم خفاجي ص ٩٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٩ .

(٣) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ـ شرح الشيخ محمد رشيد رضا ص ٥ .

المعنى ، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ولما وُجِدَ فيه إلا معيب مستهجن ولذلك ذم الإكثار منه والولوع به»[1] .

فلكل من المعنى واللفظ دوره في روعة العمل الأدبي ، ولكنَّا نراه في «الأسرار» ينتصر للمعاني أكثر من إثباته مزايا الألفاظ ، وفي «الدلائل» كان حَكَمًا عدلاً بينهما ، ولعل السر أن التعصب للفظ وقت أن وضع «أسرار البلاغة» كان قد بلغ مداه .

● **قيمة مذهب عبد القاهر :**

كانت فكرة النظم التي أشار إليها الجاحظ وتبنَّاها عبد القاهر الجرجاني ففتح أكمامها وبعثها في كتابه «الدلائل» حديقة دانية القطوف ، وارفة الظلال ، كانت هذه الفكرة فتحًا جديدًا في مجالات البلاغة والبيان والأدب والنقد ، وقد سبق عبد القاهر المفكرين المعاصرين بزمن طويل حين أرسى قواعد هذه النظرية التي يتعانق فيها الشكل والمضمون وتبدو فيها قيمة الألفاظ والمعاني مجتمعة دونما تفضيل .

«مذهب عبد القاهر هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوربا لأيامنا هذه ، هو مذهب العالِم السويسري الثبت «فردنان دي سوسير» (المتوفى سنة ١٩١٣م) . لقد فطن عبد القاهر إلى أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات»[2] .

وقد أخذ بنظرية عبد القاهر عالِم وناقد إيطالي هو «بندتو كروتشيه» ونظريته في النقد ذات خطر عظيم .

وفي هذه النظرية إجابة شافية عن سؤال مهم في مجال النقد الجمالي :

هل الجمال ينحصر في المضمون وحده ؟ أم في الشكل وحده ؟ أم هو فيهما معًا ؟

---

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ـ شرح الشيخ محمد رشيد رضا ص ٤ .

(٢) النقد المنهجي عند العرب : دكتور محمد مندور ص ٣٢٨ .

وعلى ما هو معروف بين فلاسفة الجمال من المراد من الشكل والمضمون ، فإن عبد القاهر كان عالميًا في منهجه إذ أرجع التذوق الجمالي إلى الشكل والمضمون كليهما ، لهذا يلتقي «بندتو كروتشيه» مع عبد القاهر في هذا المنهج السليم .

لأن كروتشيه « يحدد المضمون بالأحاسيس أو الناحية الانفعالية قبل صقلها صقلاً جماليًا ، وأما الشكل فهو صقلها وإبرازها في تعبير عن طريق النشاط الفكري ، وعلى هذا يأبى « كروتشيه» أن تكون الحقيقة الجمالية محصورة في المضمون ، وإنما هي ترجع إلى الشكل بما يحويه من أحاسيس وخيالات وعواطف وانفعالات ، لأن أهمية المضمون عنده تنحصر في التعبير عنه تعبيرًا جماليًا»[1] .

● **الموازنة بين معنى ومعنى :**

وأما الموازنة بين معنى ومعنى فإنَّ الباحث يرى أن الوجوه البلاغية من أهم العناصر التي كانت تعتمد عليها هذه الموازنات ، ونورد بعض الأمثلة فيما يأتي لنرى إلى أي مدى كانت الوجوه البلاغية تذكيها وتوجهها وتتخذ أساسًا للحكم أو القبح فيها .

فالآمدي وهو أحد رجلين وضعا أصول النقد المنهجي عند العرب ، أكثر ما يقوم عليه مذهبه النقدي هو الملاحظات البلاغية فقد ذكر ابن المعتز قول أبي تمام :

فَضَـرَبْتُ الشِّـتَاء فـي أَخْدَعَيْـهِ ضَـرْبَةً غَادَرَتْـهُ عُـوْدًا رَكُوبَـا[2]

على أن فيه استعارة معيبة ، فجاء الآمدي يدافع عن أبي تمام فيقول : « فأما قوله ـ يعني أبا تمام ـ « فضربتُ الشتاء في أخدعيه» فإن ذكر الأخدعين على

---

(١) النقد الأدبي الحديث : دكتور محمد غنيمى هلال ص ٢٩٤ (بتصرف) .

(٢) الموازنة للآمدي ص ١١٠ .

قبحهما أسوغ ، لأنه قال : «ضربة غادرته» .. وذلك أن العود المسن من الإبل يُضرب على صفحتي عنقه فيذل ، فقربت الاستعارة هنا من الصواب قليلاً»[1].

وللآمدي باب خاص عقده «لما عيب من الاستعارة عند أبي تمام» ويورد الآمدي بعض استعارات القرآن شارحًا لها وموضحًا أوجه الجمال فيها .

وبهذا المقياس نفسه ـ قبح الاستعارة أو حسنها ـ يعيب قول أبي تمام :

يَا دَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أخْدَعَيْكَ فَقَدْ أضْجَجْتَ هذا الأنامَ مِن خُرْقِك

ويتساءل : أي ضرورة دعته للأخدعين ؟ وكان يمكن أن يقول : من اعوجاجك ، أو : قَوِّم من عوج صنعتك ، أو : يا دهر أحسن بنا الصنيع ، لأن الأخرق هو الذي لا يحسن العمل .

وعاب ـ كذلك ـ قوله :

وَحُمِّلْتُ مَا لَوْ حُمِّلَ الدَّهْرُ شَطْرَهُ لَفَكَّرَ دَهْرًا أيُّ عِبْئَيْهِ أثْقَلُ

إذ جعل للدهر عقلاً ، وجعله مفكرًا في أي العبئين أثقل ، وما معنى أبعد من الصواب من هذه الاستعارة ، وكان الأليق بهذا المعنى لما قال : «وحملت ما لو حمل الدهر شطره» أن يقول : لتضعضع ، أو لانهد ، أو لأمن الناس صروفه ونوازله ، ونحو هذا مما يعتمده أهل المعاني في البلاغة .

والموازنة في هذه الأمثلة بين معنى قيل وفيه خطأ ومعنى كان يجب أن يقال .

ويورد للبحتري بيتًا آخر وينقده . وهو قوله :

قِفْ العِيسَ قَدْ أدنَى خُطاهَا كَلالُها وَسَلْ دَارَ سُعْدَى إنْ شَفَاكَ سُؤَالُها

يقول الآمدي : وهذا لفظ حسن ومعنى ليس بالجيد ، لأنه قال : «أدنى خطاها كلالها» ، أي قارب من خطوها الكلال ، وهذا كأنه لم يقف لسؤال الديار التي تعرض لأن الوقوف يشفيه وإنما وقف لإعياء المطى ، والجيد قول عنترة :

---

(١) الموازنة للآمدي ص ١١٠ .

فَوَقَفْتُ فِيهَا نَاقَتِي وَكَأَنَّهَا ... فَدَنٌ لأَقْضِي حَاجَةَ المُتَلَوِّمِ

فإنه لما أراد ذكر الوقوف احتاط بأن شبَّه ناقته بالفدن وهو القصر ، ليُعلم أنه لم يقفها ليريحها .

ويمضي بعد ذلك مناقشًا كل الدفوع التي يمكن أن تقال في جانب البحتري حتى ليقيم عليه الحُجَّة من كل وجه ، بأنه خالف عادات العرب في مثل هذه المواقف ، مؤيدًا وجهة نظره بمأثورهم .

ويعيب قول أبي تمام متغزلاً :

بَيْضَاءُ تَسْرِي فِي الظَّلامَ فَيَكْتَسِي ... نُورًا . وتُبْدُو فِي الضياء فَيُظْلِمُ

مَلْطُومَةٍ بِالوَرْدِ أُطْلِقَ طَرْفُهَا ... فِي الخَلْقِ فَهْوَ مَعَ المَنُونِ مُحَكَّمُ

فيقول الآمدي: «وقوله : «ملطومة بالورد» يريد حُمرة خدها ، فلِمَ لم يقل : مصفوعة بالقار يريد سواد شعرها ؟ ومخبوطة بالشحم يريد امتلاء جسمها ؟ ومضروبة بالقطن يريد بياضها ؟ إن هذا لأحمق ما يكون من اللفظ وأسخفه وأوسخه ، وقد جاء مثل هذا في كلام العرب ولكن على وجه حسن .. قال النابغة : «مقذوفة بدخيس اللحم» يريد أنها قُذِفت بالشحم ، أي كأنه رُمِيَ على جسمها رميًا ، وإنما ذهب أبو تمام إلى قول أبي نواس : «وتلطم الورد بعنَّاب» وهذه كانت تلطم في الحقيقة في مأتم على ميت بأنامل مخضوبة الأطراف فجعلها عنابًا تلطم به وردًا ، فأتى بالظُرف كله ، والحُسن أجمعه ، والتشبيه على حقيقته ، وجاء أبو تمام بالجهل على وجهه ، والحمق بأسره ، والخطأ بعينه»[(١)] .

والحق أن الآمدي كان يصدر في نقده عن ذوق وخبرة وعلم وحكمة ، وكتابه «الموازنة» حافل بما يمتع الباحث ويفتح أمامه آفاقًا واسعة للموازنة والدرس .

---

(١) اعتمدنا في نقل هذه الموازنة على كتاب «النقد المنهجي عند العرب» للدكتور محمد مندور ص ١١٨ ، وقد أشار إلى أنه نقلها عن مخطوط بدار الكتب (اللوحة ٧٤) .

وهو كما رأينا معتمد ـ في كثير من الأحيان ـ على الأصول البلاغية في نقده، بل مشرِّع فيها وصاحب رأي، والموازنة هنا بين نصين كل منهما قد قيل.

● **القاضي الجرجاني :**

وكان كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصومه» ، للقاضي أبي الحسن الجرجاني مصدرًا للنقد العربي، وتوجيهه توجيهًا منهجيًّا، وليس من السهل وصف هذا الكتاب وما حواه من نظريات وآراء، وإنما نذكر هنا أمثلة تدل على شيوع البلاغة، وتوجيهاتها في منهج هذا العالِم الذائع الصيت، والناقد العميق النظر.

على أن عنوان كتابه يوحي بخطورة موضوعه، فإن الخصومة بين المتنبي وخصومه أمر له خطره في تاريخ النقد العربي، والفصل فيها لا يقدم عليه إلا الثقات من النقّاد، المحيطون بفنون القول ووجوه الحسن والقبح في الأساليب، وقد اجتمعت هذه المؤهلات في القاضي الجرجاني وكتابه المذكور أكبر شاهد له.

ومن الأمثلة التي تهمنا في هذا المجال، أنَّ الجرجاني قد مدح أبياتًا لأبي تمام، هي :

دَعْنِي وَشُرْبَ الهَوَى يَا شَارِبَ الْكَاسِ ... فَإِنَّنِي لِلَّذِي حُسِّيتُهُ حَاسِي
لا يُوحِشَنَّكَ مَا اسْتَسْمَجْتَ مِنْ سَفَهِي ... فَإِنَّ مُنْزِلَهُ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ
مِنْ قَطْعِ أَوْصَالِهِ تَوْصِيلُ مَهْلَكَتِي ... وَوَصْلُ الْحَاظِهِ تَقْطِيعُ أَنْفَاسِي
مَتَى أَعِيشُ بِتَأْمِيلِ الرَّجَاءِ إِذَا ... مَا كَانَ قَطْعُ رَجَائِي فِي يَدِ يَاسِ

يقول الجرجاني معلقًا عليها : «فلم يخل بيت منها من معنى بديع، وصفة لطيفة، طابق وجانس، واستعار فأحسن، وهي معدودة من المختارة من غزله وحق لها، فقد جمعت على قصرها فنونًا من الحسن وأصنافًا من البديع، ثم فيها من الأحكام والمتانة ما تراه، ولكن ما أظنك تجد لها من سورة الطرب وارتياح النفس ما تجده لقول بعض الأعراب :

أقُـولُ لِصَـاحِبِي وَالعِـيسُ تَهْـوِي ... بنَـا بَـيْنَ المنِيفَـةِ فالضِّـمارِ
تَمتَّـعْ مـن شَـمِيم عَـرَارِ نَجْـدٍ ... فَمَـا بَعْـدَ العَشِـيَّةِ مـن عِـرَارِ
ألا يـا حبَّـذَا نَفَحَـاتُ نجـد ... وَرَيـا رَوْضِـهِ غِـبَّ القِطَـارِ
وَعَيْشُـك إذْ يَحِـلُّ القـومُ نجـدًا ... وأنـتَ عَلَـى زَمَانِـك غَيْـرُ زارِ
شُـهُورٌ يَنْقضِـينَ وَمَـا شَـعَرْنَا ... بِأنْصَـافٍ لَهُـنَّ وَلا سِـرَارِ
فَأمَّـا لَـيْلُهُنَّ فَخَيْـرُ لَيْـلٍ ... وَأقْصَـرُ مَـا يَكُـونُ مـن النَّهَـارِ

فهو ـ كما تراه ـ بعيد عن الصنعة ، فارغ الألفاظ سهل المأخذ قريب التناول ، وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحُسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته ، وتُسلِّم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبَّه فقارب ..[(١)] ، وهو في هذين النموذجين ينقد ويوازن .

ويأخذ الجرجاني في إيراد أمثلة للاستعارة الحسنة والقبيحة ويتحدث ـ مثلاً ـ عن التجنيس المطلق والتجنيس المستوفي والناقص والمضاف .. إلخ .

وتراه أحيانًا مصححًا لأخطاء وقع فيها بعض الناس ، كأن يخلطوا بين الاستعارة والتشبيه ، فتراه يقول في بيت أبي نواس :

وَالحُـبُّ ظَهْـرٌ أنـتَ رَاكِبُـهُ ... فَـإذَا صَـرَفْتَ عَنَانَـهُ انْصَـرَفَا

ولستُ أرى هذا وما أشبهه استعارة وإنما معنى البيت : أن الحب ظهر أو مثل ظهر .. أو الحب كظهر تديره كيف شئتَ إذا ملكت عنانه .. فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شيء بشيء[(٢)] .

ثم يضع حدًا للاستعارة يلتقي فيه مع الآمدي ، إذ يطلب كل منهما في الاستعارة أن تظهر فيها المناسبة بيِّنة بين المستعار له ، والمستعار منه .

ويمضي الجرجاني بروح العالِم الناقد بعد مقدمة كتابه يتحدث عن الشعراء المتقدمين والمتأخرين وخاصة أبا نواس وأبا تمام مصورًا ما في أشعارهم من

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه : المقدمة ـ للقاضي الجرجاني ص ٥٧-٥٩ . ط . الحلبي .

(٢) المرجع السابق ص ٤١ .

جمال أو قبح ، محتكمًا إلى البلاغة والذوق واللغة والتاريخ ، ثم يعمد إلى شِعر المتنبي ويذكر طائفة من أشعاره التي أُخِذَت عليه إما لبعد الاستعارة أو لغرابة في اللفظ أو تعقيد في الكلام .

● **حصيلة هذه الجولات :**

رأينا منذ بزوغ النقد العربي من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري أن النقد والبلاغة وُلِدا توأمين ، وأن البلاغة كانت ذات يد على النقد غذَّته ونمَّته ، وأمَّدته بكثير من عناصر التطور والنضوج ، وأنها كانت ـ وما زالت ـ المقوِّم الأساسي للنقد الفني والنقد النفسي .

ورأينا أنها تشريع للأدب ، ومنارات هدى للشعراء والناثرين ، تُسهم في رسم الصورة التي ينبغي أن يكون عليها الأداء اللفظي ، والأسس العامة التي ينبغي أن تورد على هداها المعاني .

ورأينا أنها كانت وراء كل قضية أدبية أو نقدية لأنها كانت تشيع في الأساليب شيوع الماء في العود الأخضر ، فما استُحْسِن معنى إلا من جهتها ، ولا عِيْبَ آخر إلا لمخالفته مقاييسها ، بل كانت هي وراء أخطر قضية في النقد العربي لا من الناحية الأدبية فقط ، بل ومن ناحية الدين أيضًا ، إنها وراء قضية الإعجاز القرآني ، وكتاب عبد القاهر «الدلائل» آية هذا وشاهده .

وإذا نظرنا إلى عنصري الأدب ـ «الألفاظ» و«المعاني» ـ فإن البلاغة تشرِّع للاثنين معًا ، وتقدِّم لهما أثمن الإرشادات .

● **الألفاظ :**

فمن حيث الشكل اهتمت جهود العلماء بدراسة الألفاظ وصنَّفوها تصنيفًا حكموا بجمال بعضها وحكموا بقبح بعضها ، وأوصوا باستعمال الجميل وإطراح القبيح ، فقد اشترطوا في جمال اللفظ : الجزالة والاستقامة ، ومشاكلته للمعنى ، وشدة اقتضاء القافية له إن كان الموضوع شِعرًا .

وجزالة اللفظ تتوافر له إذا لم يكن سوقيًا مبتذلاً ولم يكن غريبًا نابيًا ، ومعياره عندهم أن يكون بحيث تعرفه العامة ولا تستعمله في محاوراتها[1] .

وبهذه القاعدة عابوا كثيرًا من أقوال الشعراء .

واستقامة اللفظ تكون من حيث الجرس أو الدلالة أو التجانس مع قرائنه من الألفاظ ، فمن حيث الجرس يكون اللفظ مستقيمًا إذا لم يجاف المتكلم به أصل وضعه اللغوي ولهذا عابوا البحتري في قوله :

تشُـقُّ عَلَيْـهِ الـرِّيحُ كـل عَشِـيَّةٍ جُيُـوبَ الغَمَـامِ بَـيْنَ بِكْـرٍ وَأَيِّـمِ

لأن الأيِّم هي مَن لا زوج لها ، سواء سبق لها الزواج أو لم يسبق ، فالمقابلة بينهما غير مستقيمة[2] .

وكذلك يكون اللفظ مستقيمًا إذا تجانس مع قرائنه من الألفاظ ، ولذلك عابوا قول مسلم بن الوليد :

فَاذْهَـبْ كَمَـا ذَهَبَـتْ غَـوَادِي مُزْنَـةٍ يَثْنِـي عَلَيْهَـا السَّـهْلُ وَالأَوْعَـارُ

لأن المناسب أن يقول : السهل والوعر ، أو السهول والأوعار ، ليكون البناء اللفظي واحدًا[3] ، ومشاكلة اللفظ للمعنى تكون إذا وقع اللفظ موقعه بغير زيادة ولا نقص ، لذلك أخذوا على المتنبي قوله :

اسْـتَأْثَرَ اللهُ بِالوَفَـاءِ وَبِالعَـدْلِ وَأولَـى الْمَلامَـةَ الـرَّجُلا

لأن الملامة تتجه إلى الإنسان رجلاً كان أو امرأة ، فذكره الرجل ـ هنا ـ في مكان « الإنسان » معيب .

ويلحق بهذا القياس وقوع الكلمة موقعها من القافية في الشعر ، ولذلك مدحوا قول الحطيئة :

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندي : ٢٠٦/١ ـ طبعة دار الكتب .

(٢) سر الفصاحة ـ لابن سنان الخفاجي ص ٧٢ (بتصرف) .

(٣) لا يرى ابن الأثير وجهًا لهذا النقد لورود نظيره في القرآن الكريم مثل : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾(النحل:٤٨) انظر كتابه « المثل السائر »،وعقود الجمان للسيوطي ص١٠٨.

هُــــمُ القَــــوْمُ الَّـــذِينَ إذَا أَلَمــــتْ   مِــــنَ الأيَّـــامِ مُظْلِمَـــةٌ أضَـــاءُوا

لأن الإضاءة يتطلبها ظلام الأيام ، وما استجد منها من أحداث مدلهمة [١].

وتوسعوا في أوصاف اللفظ وجعلوا لكل نوع حكمًا .. فهناك اللفظ العذب ، واللفظ القوي ، واللفظ الرقيق ... إلى آخر هذه الأوصاف الحسنة .

وهناك اللفظ النازل ، واللفظ النابي ، والمستكره ، والقلق ... إلى آخر هذه الأوصاف المعيبة .

● المعــاني :

أما المعنى فيطلبون فيه أن يكون شريفًا ، وشرف المعنى أن يقصد الشاعر فيه إلى الإغراب واختيار الصفات المثلى ، إذا وصف أو مدح لا يبالي بالواقع . فإذا وصف فرسًا وجب أن يكون الفرس كريمًا ، وإذا تغزَّل ذكر من أحوال محبوبه ما يمتدحه ذو الوجه الذي برح به الحب[٢].

وإذا مدح فعليه أن يذكر ما يدل على شرف المقام إبداعًا وإغرابًا لا مراعاة لصدق الموقف ولصفات ممدوحه كما يراه[٣] .

ويطلبون فيه أن يكون صحيحًا ، وصحة المعنى عندهم أن يسلم من الخطأ التاريخي أو العُرفي .. وبالاعتبار الأول عابوا قول زهير :

فَتَنْــتِجْ لَكُــمْ غِلْمَــانَ أشْـأمَ كُلُّهُــمْ   كــأحْمَرِ عَــادٍ ، ثُــم تُنْــتَجْ فَتُتْــئِم

لأن المشتوم هو قدار أحمر ثمود[٤] .

وبالاعتبار الثاني عابوا قول البحتري :

نَصَـرْتُ لَهَـا الشَّـوْقَ اللَّجُـوجَ بـأدْمُعِ   تَلاحَقْـنَ فـي أعْقَـابِ وَصْـلٍ تَصَـرَّمَا

---

(١) الموشح للمرزباني ص ٩١ .

(٢) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ٤٤ .

(٣) هذا يتعارض مع نظرية الالتزام في الأدب بالصدق وهو المذهب الذي امتدحه عمر ابن الخطاب .

(٤) النقد الأدبي الحديث : دكتور محمد غنيمي هلال ص ١٧٦ .

وذلك لأن الآمدي يرى الشوق يشفيه البكاء ولا يزيد منه ، وعلى هذا النهج سار الشعراء قبل البحتري .

كما عابوا قول أبي تمام :

إذَا مـا رحَّـى دَارَتْ أدَرَّتْ سَـمَاحَةً رَحَـى كُـلِّ إنجـازٍ عَلَـى كُـلِّ مَوْعِـدِ

لأنه جعل إنجاز الوعد بمثابة طحنه بالرحى ، وهو قضاء عليه ، وذلك في عُرف اللغة لا يكون إلا للإخلاف[1] .

ويطلبون فيه الإصابة في الوصف ، فعليه أن يذكر المعاني العامة التي هي أولى بمثال الموصوف من حيث هو مثال ، فينأى عن المعاني والصفات المجهولة ، ولهذا حكموا بإصابة زهير في الوصف حين مدح هرم بن سنان ، لأنه وصفه بالصفات العامة التي يجب أن تكون في الرجل الكريم .

كما يطلبون فيه المقاربة في التشبيه ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، على حسب العُرف اللغوي والمجاز ، ولهذا عابوا قول أبي نواس :

بُـحَّ صَـوْتُ المَـالِ مِمَّـا مِنْـكَ يَشْـكُو ويَصِـيحُ

وذلك لبُعد الشبه بين المال ـ المشبه ـ والإنسان ـ المشبَّه به .

كذلك يطلبون فيه الاعتدال ، ويذمون المبالغة المغرقة ... إلى آخر ما شرعوه لتصوير المعاني الكلية والجزئية .

● **منارات على الطريق :**

والبلاغة العربية بحثت في اللفظ المفرد وهيئته للاستعمال خاليًا من العيوب فلا يكون اللفظ أو الكلمة فصيحة صالحة للاستعمال إلا إذا سلمت من أربعة عيوب :

الأول : سلامتها من تنافر الحروف لتكون الكلمة رقيقة عذبة .

الثاني : سلامتها من الغرابة لتكون الكلمة مألوفة الاستعمال غير قلقة .

---

(١) الموازنة : للآمدي ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

الثالث : سلامتها من مخالفة القياس لئلا تكون شاذة .

الرابع : سلامتها من الابتذال فلا تكون الكلمة قد أبلاها الاستعمال .

فإذا سلمت من هذه العيوب فهي فصيحة ، وإذا لم تسلم فهي غير فصيحة ، واستعمالها معيب ولهذه الاعتبارات ردوا كثيرًا من النصوص .

أما الكلام ـ قَلَّ أو كثر ـ فالفصاحة ـ أيضًا ـ شرط جماله ، وهو لا يكون فصيحًا إلا إذا سلم ـ أيضًا ـ من العيوب الأربعة الآتية :

الأول : تنافر الكلمات مجتمعة .

الثاني : ضعف التأليف ، فلا يخرج الكلام عن قواعد النحو المشهورة .

الثالث : التعقيد اللفظي بحيث لا يكون الكلام على نسق غير معروف .

الرابع : التعقيد المعنوي بحيث لا يظهر المعنى من الكلام إلا بعد جهد جهيد ... هذا نصيب الكلام من الفصاحة والمقصود من ورائه أن يكون النص عذب الكلمات رشيقها وأن يكون معناه واضحًا ، والوضوح دعامة من دعائم جمال النص .

فإذا توافرت في الكلام ـ بعد الكلمة ـ شروط الفصاحة ـ فلا تظنن البلاغة تنتهي بك عند هذا الحد ، بل تأخذ بيدك إلى مقياس آخر ، هو أن يكون الكلام بليغيًا ... ولا يكون الكلام بليغًا إلا إذا كان مطابقًا لمقتضى الحال ، مع فصاحة كل كلمة فيه ، ولكل مقام مقال ، وعلى المتكلم أن يكون خبيرًا بأحوال مخاطبيه . فطنًا بطرق التعبير حتى يكون كلامه مؤثرًا .

وهنا تظهر صلة البلاغة بأحوال النفس ، وهي صلة تشغل جانبًا كبيرًا فيها ، فعلى المتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار السامعين ، ويعرف أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا ، ولكل حالة مقامًا . وقد فصلت البلاغة القول فيما يناسب كل مقام ، وأمدت المتكلم بالنماذج والأسس التي يسير على هداها في كل حال ، وكان علم المعاني ـ وهو أحد مباحثها الثلاثة ـ خير معين على ذلك .

ففيه التوكيد بأنواعه ، وفيه ترك التوكيد عند عدم دواعيه ، وفيه الحذف والذِّكر ، وفيه التقديم والتأخير ، وفيه التعريف والتنكير ، وفيه الفصل والوصل، وفيه الإيجاز والمساواة والإطناب ، وفيه القصر وعدم القصر ، وفيه الحقيقة العقلية والمجاز العقلي .. وهذه عناوين لأمهات مسائل تحتها كثير من الدقائق والأسرار .

وعلم البيان مجال فسيح لتصوير المعاني ، وخلجات النفوس في أدق أحوالها ، ففيه التشبيه والتمثيل ، وفيه الاستعارة ، وفيه المجاز المرسل ، وفيه الكناية والتعريض ، وفيه الالتفات من حالة إلى حالة لداع ومقتض .. وفيه كثير من التوجيهات .

والتشبيه والمجاز وسائل إبراز الخيال والعواطف ، ومكامن الإبداع والخلق في كل عمل فني ، فليس هناك وسيلة يمكن أن يصور على هداها الخيال إلا التشبيه والمجاز .

والبديع ليس سمة ترف في الأسلوب متى كان جاريًا مع الطبع ، وإنما هو مظهر من مظاهر التناسق الصوتي في العمل الأدبي . ومظهر من مظاهر التأنق في روعة المعنى وحسن تأديته .

إن منزلة البديع من الأسلوب منزلة المكملات في الجملة بعد استيفاء ركنيها ، ولم يقل أحد بتهوين شأن تلك المكملات في الإفصاح عن المعنى واكتماله ، فليس في البديع مظهر ترف في البيان وإنما هو إضافات تزدان بها العبارات وتكسبها بهاءً وخلابة .

تلك هي ـ في إيجاز ـ بلاغتنا العربية ، دعامة الإعجاز البياني ومصدر القوة والجمال في البيان الرفيع ، وصدق الله العظيم إذ يقول منوِّهًا بفضل بلاغة القول : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ (النساء:٦٣) .

* * *